(٣٠) وليم فوكنر : « **الدب** »

بقلم : دانيال هوفمان

أصبحت قصة « الدب » لوليم فوكنر تحتل مكانة فى أدبه مثل تلك التى تشغلها رواية « بيلى بد » عند هيرمان ميلفيل ، و « العجوز والبحر » عند إيرنست هيمنجواى . هذه القصص الثلاث مختصرة نسبيًّا ، وكتبت فى أعقاب الروايات الرئيسة لهؤلاء الكتاب ، أى الأعمال التى تجعل من هذه القصص مجرد موجز لها .

تأتى قصة فوكنر بعد معظم كتبه التى تحتويها ملحمة يوكنا باتاوفا : أى فى أعقاب « العقل والغضب » (١٩٢٩) ، و « عندما أرقد فى انتظار الموت ! » (١٩٣٠) ، و « الضياء فى أغسطس » (١٩٣٢) ، و « أبشالوم ، أبشالوم ! » (١٩٣٦) ، و « القرية الصغيرة » (١٩٤٠) . و « الدب » فى شكلها الحالى ظهرت فى عام ١٩٤٢ كواحدة من القصص السبع المتداخلة فى كتابه « اهبط يا موسى » .

هذه القصص تلتقى فى منتصف الطريق وسجل حياة واحدة من العائلات التى تقطن فى مقاطعة يوكنا باتاوفا ، وهى البقعة الخيالية التى ابتكرها فوكنر فى منطقة الميسيسبى معتمداً فى ذلك على معلوماته عن الإقليم الذى ولد وترعرع فيه .

أما العائلة التى فى « اهبط يا موسى » فهى آل ماكاسلين الذين ينتمون إلى سلالة يمتزج فيها الجنس الأبيض والأسود الذى يمد جذوره إلى أحد المستوطنين الأوائل للمكان .

وهذه الطبعة من « الدب » هى التالية لقصة أقصر وأبسط كتبت قبل ذلك بعدة سنوات . وكان فوكنر قد قال عن روايته المعقدة « العقل والغضب » : إنه كان عليه أن يكتب القصة بأحداثها نفسها أربع مرات ، وكل مرة من وجهة نظر شخصية مختلفة . وفى مراجعاته لقصة « الدب » نرى تصميماً مشابهاً على أن تطارد القصة كاتبها حتى قمة التعقيد الذى يلف الحقيقة التى تتصارع عليها لكى تعبر عن ذاتها .

ومن السهل تلخيص الخط الرئيس للحدث فى القصة : فالدب الذى ورد فى العنوان وحش هائل تعد مطاردته فوق شريط شاسع من أرض البرارى التى يملكها ماجور دى سبين برنامجاً وهدفاً لحفلة صيد تقام كل نوفمبر . ونحن نتتبع هذا الصيد السنوى عبر المغامرات التى يقوم بها أصغر عضو فى الجماعة : آيزاك ماكاسلين الذى لم يتعد السادسة عشرة من عمره ، وكان ذلك فى عام ١٨٨٣ حين بدأت القصة ، وكان الدب الذى أطلق عليه اسماً مستعاراً : (بن العجوز) عـدوًّا أو خصماً ماكراً عنيداً استطاع بسهولة التفوق على ذكاء أمهر الصيادين ، وأشد كلابهم إصراراً وتشبثاً . وكان آيزاك أو آيك كما يسمونه قد تدرب على الصيد على يدى سام فاذرز ذلك الصياد الغريب النبيل الذى كان ابنا لزعيم هندى من قبيلة تشيكاسو ولأم زنجية من الرقيق . وبعد سنوات عدة وجد سام فى الغابات الكلب الذى سيتمكن من اقتفاء أثر (بن العجوز) ؛ وينجح فى ترويض هذا الكلب العنيف الذى يسميه لايون (الأسد) دون أن يكسر من حدة وحشيته . وأخيراً بمساعدة لايون يعجز (بن العجوز) عن الإفلات من الحصار ؛ ولكن عندما يقع الوحشان أسيرى صراع الموت يثب بون هوجانبك وهو عضو آخر فى جماعة الصيد ينتمى نصفه إلى أصل هندى – يثب فى حومة القتال ويطعن (بن العجوز) فى قلبه بسكينه ، هذا الجزء الضخم من الأحداث يحتل الفصول الثلاثة الأولى من القصة التى تتكون من خمسة فصول .

ولكى نستمر فى هذا الملخص المسلسل للأحداث يتحتم علينا التغاضى مؤقتا عن الجزء الرابع .

فى الجزء الخامس يعود آيك ماكاسلين إلى منطقة الصيد بعد سنتين من موت (بن العجوز) . الآن تغير كل شىء ؛ إذ إن ماجور دى سبين قد باع أراضى الصيد التى كان يمتلكها إلى شركة للأخشاب ، وسرعان ما اجتاحت الحضارة الأرض العذراء بكل سككها الحديدية ، وعمالها لقطع الأخشاب ، وتدميرها للبرارى بهدف استغلالها . ومن الواضح أن (بن العجوز)

كان أكثر من مجرد وحش للصيد ، كان – بطريقة ما – تجسيداً لروح البرية . وبموت الدب كتب على البرية نفسها الفناء . وقد سبق أن تمثلت هذه الحقيقة فى وفاة سام فاذرز آخر المتحدثين بلغة البلاد الأصلية ، وآخر كهنة طوطمها المقدس . وفى اللحظة التى يتم فيها نفسها ذبح (بن العجوز) يسقط سام على الأرض فى نوبة صرع أصابته بالشلل الذى لم يكن له منه شفاء . ويمكث آيك وبون للعناية بسام فى حين يعود باقى الجماعة إلى المدينة ، وعند موته يدفنونه طبقاً لرغبته : أى على طريقة أجداده الهنود .

وفى القسم الخامس من القصة يدرك آيك عند عودته أن القاطرة البخارية أصبحت الآن الصورة السائدة للنشاط والحركة فى الغابات . لماذا يعود آيك ؟ إنه يعود للحج إلى أماكن الخلاء حيث يمتلئ بروح البرية ، وحيث دفن لايون ، وحيث يرقد سام فاذرز ، وبجوار قبر الراعى الذى رعاه فى صباه تراءى أمامه الفناء الذى يحكم هذه الحياة كلها . وكانت الهبات التى تركها على قبر سام حفنةً من التبغ ومنديلاً كبيراً ملوناً ، وحلوى النعناع – وهى الأشياء التى يدرك آيك أنها ذهبت بلا رجعة :

« إنها لم تختف ، بل تحولت إلى تلك الحياة الحاشدة المزدحمة التى دمغت الطابع المظلم لهذه الأماكن السرية التى لم تعرف الشمس بلمسات مضيئة من السحر الرقيق . كانت تتنفس ساكنة لا تتحرك وهى تراقبه من خلف كل تويج وورقة حتى تحرك وظل يتحرك ويغز المسير . . . تاركاً التل الصغير الذى لم يكن مسكناً للموتى ؛ لأنه لم يكن هناك موت ولا لايون ولا سام . لم يكن مثبتاً فى الأرض بل هو حر فيها ، لم يكن فى الأرض بل كان من الأرض ، فى وسط هذا الحشد لم يكن من الممكن تمييزه من أى جزء آخر : ورقة أو تويج أو أى جُزَىء . . ! » .

هذه الرؤيا جعلت آيزاك واعياً بخلود عناصر الطبيعة وتحولاتها ، وبطاقة الحياة التى تحتوى الموت وتحاصره وتحيله إلى شىء جديد ، والتى تحافظ على القوة الدافعة فى عناصر الطبيعة لكى تبث روحها فى جميع الأشياء الفانية . مثل هذه النظرة العازية إلى الطبيعة بصفتها أم الحياة ، ومثل هذا الإيمان بالخلود الذى يتعدى حدود الخير والشر – مثل هذه وهذا يشبه الفلسفة التى ترى فى الكون كله وحدة واحدة متكاملة والتى ينادى بها وولت ويتمان أكثر من الخلود الذى تقدمه المسيحية !

وعلى الرغم من أن آيزاك ماكاسلين هو المسيحى الحق فى قصة فوكنر كما سنرى فى الجزء

الرابع – فإنه فى الوقت نفسه التلميذ الحقيقى الوحيد لسام فاذرز وعراف قبيلة تشيكاسو . وفى منتصف رؤياه الحالمة عن خلود كل ما هو فان – يستيقظ آيك نتيجة لخوف مثير لشتى الأحاسيس : فعند قدميه كانت هناك حية سامة من النوع الذى يحدث فرقعة بذنبه ، كانت تزحف عبر أرض الغابة ثم توقفت لترفع رأسها بحذاء ركبته ، وعندما واجه تلك المخلوقة « القديمة ، العريقة ، الملعونة فى كل الأرض ، المميتة (الوحيدة) فى عزلتها ، العالمة بكل المعرفة ، التى ترمز إلى ذلة الإنسان ، وإلى النبذ ، وإلى الموت » – رفع آيزاك يداً واحدة بلا تفكير مسبق – كما فعل سام من قبل عندما أطلق الصبى الرصاص على أول غزال له ، و« تكلم اللغة القديمة التى تحدث بها سام فى ذلك اليوم بلا تفكير مسبق هو الآخر قائلاً : رئيسى وجدى ! » .

هذه بالتأكيد واحدة من أكثر اللحظات تأثيراً – بل أكثرها صعوبة فيما يتصل بتحملها – فى الرواية الأمريكية . لقد تمكن فوكنر بهذا الأسلوب الجميل أن يجسد الوجود الصوفى الغامض للطبيعة ، ذلك الوجود الذى يسرى فى أدبنا ابتداء من ثورو وإميلى ديكنسون حتى روبرت فروست . إن الحية فى « الدب » ليست سوى رمز إغراء الإنسان والسقوط الأعظم ، هذه الحية تظهر لآيزاك أساساً كما لو كان سام هو الذى ينظر إليها . حقاً إنها تصبح كالإناء المؤقت الذى يجسد روح سام فاذرز الذى يقوم بدور جده وموته . وفى كل من أساطير الهنود الأمريكيين والأدب الشعبى الزنجى ترمز الحية إلى سلطان ملكى وقوة غامضة خارقة للطبيعة . وكان فوكنر مخلصاً إلى أبعد حد لتلك التيارات الممتزجة فى دماء سام فاذرز والتى منحت روحه ذلك الشكل الفانى الذى يجسد الموت المحكوم به على الإنسان .

هناك فقط صفحة أخرى أو صفحتان قبل أن تنتهى القصة : يتوغل آيك بعيداً فى الغابات حتى يصل إلى بون الذى كان يدق بجنون على ماسورة بندقيته بأحد أجزائها المنفصلة عنها . يصرخ بون قائلاً : اخرج من هنا ! لا تلمس أى شىء ! كل شىء هنا ملكى ! » فى حين أن سرباً من السناجب كان يقفز من فرع لآخر فى الشجرة التى تعلوه . لقد تحول القاتل الجبار للدب إلى مدع مجنون لملكية السناجب ! عند هذه النقطة الموحية بالانهيار الأخلاقى والعواطف المثيرة للشجن تنتهى أعظم قصة أمريكية تدور حول الصيد فى القرن العشرين .

لقد حذفت من ملخصى الجزء الرابع من القصة بالكامل ؛ لأن هذا القسم يقوم بقطع التسلسل الزمنى وإدخال أسلوب جديد يَسْرُدُ به نوعاً مختلفاً من التجربة .

يبدأ الجزء الرابع عندما يبلغ آيك ماكاسلين الحادية والعشرين من عمره . وإذا كانت الأجزاء من الأول إلى الثالث عبارة عن تقدم آيك فى العمر وسط البرية ، فإن الجـزء الرابع هو تقدمه فى العمر وسط المجتمع . وبمساعدة ابن عمه ماكاسلين إيدموندز الذى يكبره فى السن فإن آيك يتتبع تاريخ العائلة ابتداء من وصول جدهم الأكبر كاروذرس ماكاسلين إلى المسيسيبى.هذا الأسكتلندى الذى اشترى مزرعة الأسرة من زعيم هندى رزق بابنين توءمين من زوجته ، وأيضاً كان الجد لسلالة غير شرعية من عبيده من النساء الزنجيات . وكان لآيك وماكاسلين إيدموندز عائلة من أبناء العمومة السوداء الذين يعيشون فى المكان نفسه ، ومع الإحساس بالذنب والمسئوليات المترتبة على هذا الميراث كان على آيك أن يؤقلم نفسه .

وبصفة عامة فإن أسلوب قصة الصيد سردٌ مباشر ، لكن سرد الجزء الرابع تم من خلال منهج روائى مختلف تماماً ، إنه أسلوب سرد تيار الوعى الذى يستغل حركة النثر فى إثارة عمليات العذاب النفسى التى يمر بها آيزاك ماكاسلين ثم التجاوب معها . إنها عمليات امتحان الذات ومعرفة الذات بحثاً عن معنى هذا التراث ، فبعض القراء يصاب بالاضطراب من جراء جملة واحدة يمتد طولها ليغطى خمس صفحات ، أو جملة اعتراضية تحتوى على ألف كلمة ، لكن هذه الأساليب ليست بالصعوبة التى قد تبدو بها لأول وهلة .

حقًّا إنه بمجرد أن يندمج المرء فى عملية البحث التى يقوم بها آيزاك – فإن الأصالة المذهلة لأسلوب فوكنر تبدو ضرورية تماماً لتأكيد جوهر التجربة . لقد احتوت قصة الصيد الجزء الرابع داخلها ، لكنه يحتوى القصة على المستوى الزمنى ، طالما أن هذا السجل داخل القصة يعود إلى الوراء ثلاثة أجيال حتى يصل إلى تأسيس مزارع وممتلكات آل ماكاسلين ، ثم يمتد بعد نهاية الصيد ليقص علينا حياة آيك بعد ذلك .

ودلالات هذا السجل تظهر تعارض أخلاقيات الصيد فى البرية مع الأخلاقيات المسيحية فى المجتمع ، لكن قبل محاولة تتبع هذا الصراع فإنه من الضرورى العودة مرة أخرى إلى السرد الرئيس ، محملين بخطوط فكرية هذه المرة أشمل من الحدث الرئيس الذى استقر فى أذهاننا أول الأمر .

وفى الحال تبدو « الدب » قصة بسيطة إلى حد كبير ومعقدة إلى حد كبير فى الوقت نفسه ! إذ إنها لا تفصح عن معانيها للعقل الواعى إلا بعد قراءات متكررة وتفكير مسهب . لكنها تفصح عن دلالاتها فى الحال على الرغم من أنه قد لا يمكننا تحديد هذه المعانى على الفور !

وكما قال ت . س . إليوت عن الشعر : إنه يمكن تذوقه قبل فهمه بالعقل الواعى ! ولعل هناك سبباً واحداً وراء انطباق هذا القول على « الدب » ، وهو أن أحداث الحبكة تتجاوب هى والكثير من تلك الأنماط من السلوك الإنسانى التى تعد جوهرية بالنسبة لتجربتنا الثقافية كلها . وبالفعل فإن هذه الأنماط تبدو جزءاً من الميراث البيولوجى للإنسان .

إن الصيد فى هذه القصة يصبح على الفور مطاردة للمعنى وبحثاً عنه ، وربما يكون صيد الوحش المقدس أو الطوطم المقدس أقدم حدث مسجل فى سلسلة الأحداث الإنسانية . ومهما كان شكله سواء كان على شكل قصيدة ملحمية مثل « جيلجامش » ، أو قصة رمزية مثل صيد وحيد القرن ، أو أسطورة قديس مثل سان جورج والتنين ، أو رواية مثل « موبى ديك » ، أو حدوتة طويلة مثل « دب آركانساس الكبير » لتوماس بانجز ثورب — فإن مطاردة الوحش الخارق للطبيعة ترسم الحدود المميزة لعالم الطبيعة وعالم الإنسان . والصياد الذى يوفق فى هذه المطاردة ينظر إليه — سواء فى حياته أو إلى الأبد — على أنه بطل فى التراث الثقافى ، ومخلص ومنقذ لشعبه . وقصة « الدب » لفوكنر تتمشى مع هذا النمط العام والعالمى ، لكن إلى حد معين . إن أوجه الاختلاف والتشابه بين آيزاك ماكاسلين وذلك النوع من البطل الذى نتوقع وجوده فى مثل هذه القصة التى تدور حول هذا الصيد الخارق للطبيعة — هذه الأوجه مهمة جدًّا سواء بالنسبة لاستيعابنا لدوره أو بالنسبة لإنجاز فوكنر .

وعلى أية حال فإن الصيد ليس سوى أحد الأنماط الرئيسة فى القصة . هذا الصيد بحث عن المعنى ، بحث عن أسلوب للحياة أكثر روحانية من التتابع الشائع لأيامنا العادية . إن آيزاك هو البطل الذى صمم خصيصاً لهذا البحث ؛ فقد كان بحثه فى الفصول الثلاثة الأولى من القصة لاكتشاف الحقيقة المطلقة طبقاً لإرشاد سام فاذرز وفى ظل علاقة مباشرة مع (بن العجوز) الذى يجسد روح البرية . وفى الفصل الرابع كان يتحتم عليه البحث عن حقيقته فى عالم البشر ، وعن الميراث الأسرى المحمل بالذنب ومحاولة التوبة . ويجب علينا ألا ننسى أن هذا البطل قد سمى على اسم آيزاك الذى فى التوراة والذى كان قد قدم كذبيحة وقربان للرب .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى مفهومى الصيد والبحث عن المعنى معاً فإننا نجد أنهما يواكبان نمطاً إنسانيا آخر يتمثل فى عملية التعرف على الذات : فعلى المستوى البدائى جدًّا تبدو هذه القصة تجسيداً لتطور حياة آيك ماكاسلين : ذلك أن الصيد هو المرحلة الأولى فى التعرف على الذات ، وإدراكه أن الصيد فى حقيقته بحث عن المعنى — هو ما يمكن أن نسميه المرحلة

الثانية ، أما المرحلة الثالثة فى تعرف آيك على ذاته وحياته فتتبلور فى الفصل الرابع حيث يدرك ويتعرف على الشر ، فى حين أن المرحلة النهائية تتمثل فى محاولته التكفير عن ذنوب آبائه .

هذه الأنماط من الصيد والبحث عن الذات والتعرف على الحياة تمنح « الدب » الكثير من طاقتها الإيحائية . وسواء كانت هذه الأنماط - كما يقول كارل يانج - معالم رئيسة جوهرية فى النفس البشرية ، أو كانت تجسيداً لروح الأسطورة التى تعكس ثقافتها وتجاوبها - فإنها تؤثر فى وجدان القارئ بحيث تجعل أحداث القصة تبدو أشمل من الأحداث والمواقف التى تقع فيها بالفعل .

وعلاوة على ذلك فإن الأنماط الرئيسة فى القصة تمتزج بالصراعات والتوترات الأخرى التى تميز الحياة الأمريكية .

حقًّا إن الأحداث الأسطورية والطقسية تمد جذورها إلى أعماق الصراعات التى ترتبط بالأزمات العظمى فى التاريخ الأمريكى مثل التوترات بين البرية والحضارة ، بين أخلاقيات الرجل الأحمر وأساليب الرجل الأبيض الاستغلالية فى الحياة ؛ ومثل الصراع بين الحرية والعبودية ، وبين القيم الغريزية الوثنية والالتزامات المسيحية ، بين الحرية التى لا تحدها حدود والوعى بالخطيئة .

ولعلنا نكرر القول بأن الجزأين الأول والثانى يمثلان تعرف آيك على سر البرية وغموضها من خلال مشاركته فى « الطقس السنوى الوثنى » لعملية « القتل العارم للدب » .

وفى الجزء الثالث نجد أنه على الرغم من التعرف على هذه القيم قد تم بالفعل ، إلا أن الصيد يستمر بلا هوادة . وأخيرا يتمكن لايون وبون من ذبح (بن) وهو الجزء الوحشى الذى يترسخ فى وجدان الطفل . وإذا تأملنا فى الاستجابات الرمزية بين المشتركين فى الصيد النهائى المميت - فإننا ندرك أن لايون - الكلب غير المروض - استطاع أن يقترب من (بن) لأن روحه المتوحشة كانت صنواناً لروح الدب ، وعلاوة على ذلك فإن قدرة بون على الاقتراب من لايون ، وعلى إطعام الوحش من يده ، وعلى النوم مع لايون فى السرير نفسه - هذه القدرة كانت فقط بسبب أن لايون وجد فى بون طبيعته الوحشية نفسها .

وهذا التوافق فى الجرس بين اسم بون واسم (بن) - وهو ما يذكرنا دانيال بون الصائد الشهير للدببة فى الأزمنة القديمة - يربط بين طوطم الوحش وطوطم ذابحه . وتنهض أوجه التشابه تلك على المستويات الحيوانية والغريزية . والصيد كما نفذ فى هذه القصة هو بالطبع المعادل عند

الرجل الأبيض « للطقس السنوى الوثنى » القديم قدم التجربة البشرية ؛ إنه نشاط شعائرى كان فيه سام فاذرز الكاهن الأكبر الحق والسيد العظيم !

لكن سام – مثله فى ذلك مثل آيزاك – كان يملك فرصاً لذبح (بن العجوز) ، ومع ذلك رفض دائماً بكل تبجيل واتضاع أن يرفع بندقيته فى وجه روحه المقدسة الحامية له . وقد ألقى آيك ببندقيته واندفع بين ساقى الدب الخلفيتين لكى ينقذ كلبه الصغير ، وهو عمل من أعمال الخير التى قدرها (بن العجوز) بعدم إنزاله الأذى بأى منهما عندما كانا فى قبضته تماماً . أما بالنسبة لبون الشبيه بالأبله الذى يعيش حياة تنهض فقط على الإدراك الحيوانى والإشباع الغريزى فإنه يحقق بقوته المفترسة وشجاعته الوحشية أوامر سادته البيض . أما الجنرال كومبسون والماجور دى سبين فيدركان فى غموض أن نهاية الدب نهاية للعصور القديمة ونهاية للبرية ، وهما لا يعرفان : لماذا سقط سام فاذرز على الأرض فى حين كان (بن) ولايون فى نزعهما الأخير ، كان آيزاك هو الوحيد الذى أدرك أن سام كان فى نزعه الأخير هو أيضاً ؟ .

وهكذا فإن الصيد بكل فوريته لابد أن يلهث وراء نتائج مناقضة ، هذا الصيد يحفز المشتركين فيه على بلوغ الخلاص الذى يأتى نتيجة للمعرفة الحقيقية للبرية . لكنه يلهث وراء هدفه النسبى حتى الدمار والاندثار ، وهذه النهاية الأخيرة تحكم بالإعدام على الأولى ، وتغير العالم فى الوقت نفسه .

والآن نتحرك من عالم الرجل الأحمر والرجل الأبيض الذى يتمثل فى جماعة الصيد إلى اختبار الذات المشوشة فى القسم الرابع . هنا نرى عالم الرجل الأبيض والرجل الأسود الذى ينهض على الإنتاج الزراعى ؛ لكن الإنتاج الزراعى نشأ فى البرية التى تعد موطن الرجل الأحمر أصلاً ، ونكتشف أن المواطن الأصلى أو الرجل الأحمر قد تعلم بالفعل من جيرانه البيض كيف يستعبد جيرانه السود ؟

وكان إيكيموتيوب زعيم قبائل تشيكاسو (وهو فى الحقيقة الذى أنجب سام من امرأته الزنجية ، والذى باع المزارع إلى كاروذرس ماكاسلين جد آيزاك) – هذا الزعيم ربما صوره فوكنر على أنه النبيل الوحشى ، لكنه ظهر بدلاً من ذلك على أنه مرتكب الخطيئة الأصلية المزدوجة ، لقد استعبد رفاقه وباع حقه فى الميراث .

أما ما تبقى من تأملات آيزاك وابن عمه فى السجلات القديمة للمزرعة والتى تسجل تاريخ العائلة فإنه يكشف عن استمرار هاتين الخطيئتين فى عروق كاروذرس ماكاسلين : فهو بدوره

يرث خطايا الهندى كما لو كانت ملحقة بانتقال الملكية والميراث . وقد اشترى الجد ماكاسلين عدداً أكثر من العبيد ، وبكل الإنكار المذنب لحرية الآخرين فإنه يغتصب خادمته الزنجية إيونيس ! وقد ضاعف من خطيئته هذه بعد عشرين سنة باغتصابه ابنة إيونيس التى أنجبتها منه ! بمثل هذا الذنب استطاع كاروذرس ماكاسلين – الأسكتلندى الثورى الذى ينتمى إلى كنيسة البريسبيتيريان – أن يسأنف العيش ، فى حين أن العار المضاعف الذى أصاب إيونيس من جراء اغتصاب سيدها لها واعتدائه على المحارم فى شخص ابنتها – كان أفظع مما استطاعت إيونيس أن تتحمله ! وفى عيد الميلاد عام ١٨٣٢ تموت منتحرة بإغراق نفسها فى النهر !

وقد أضاف ماكاسلين الأول خطيئة التكبر إلى خطايا إيكيموتيوب المتمثلة فى الجشع والفسق . وقد تمثل هذا التكبر بأسلوب كوميدى أوضح فى ادعاءات أم آيزاك التى تقول : إنها قبل زواجها من باك ماكاسلين الذى تحتم عليه أن يتزوجها فإنها كانت رهناً فى لعبة البوكر التى خسر فيها أمام أخيها ، وبذلك لم تعد تسمى الآنسة سوفونسبا بوشامب . هذه المظاهر العبثية التى تتجسد فى الآنسة سوفونسبا وأخيها هيوبرت والتى تم سردها فى إيجاز فى الجزء الرابع من « الدب » – هذه المظاهر سردت بإسهاب أكثر فى القصة الأولى فى مجموعة « اهبط يا موسى » . فى تلك القصة بعنون « كان » نحصل على وصف كامل للكيفية التى عينت بها الآنسة سوفونسبا صبيًّا زنجيًّا حافى القدمين لكى ينفخ فى نفير عند بوابة منزلهم ، وهو الذى أصرت على تسميته « وورويك » ، كما لو كانت قد أقامت دوقية فى قلب البرية ! هذا الخط الفكرى الذى ربما يكون فوكنر قد اقتبسه ومعه كل اللمسات الكوميدية من رواية هوثورن « البيت ذو الأسقف السبعة المائلة » – قد تخلل نسيج الخطايا الكبرى التى ارتكبتها عائلة ماكاسلين : ذلك أن هيوبرت بوشامب يرتكب فى زمنه هذه الخطايا أيضاً : لقد تبين أنه كان على علاقة جنسية بفتاة زنجية محررة تعيش فى بيته ، كما تكشف جشعه عندما فتح آيزاك – الذى كان يناهز الحادية والعشرين من عمره – الحقيبة المصنوعة من الخيش التى ختم فيها هيوبرت بالشمع كأساً فضية مملوءة بقطع ذهبية كمقابل لحصوله على حق ابن أخته فى الميراث . لقد استعاد الخال اقتراض المقابل الذى دفعه ، لكى يغطى خسائره فى البوكر ، ووضع محله صفيحة بن فارغة ملأها بالملاليم النحاسية الحمراء وصكوك أمانة لا يمكن أن تسترد ! (فهو الآن ميت) !

ولكن إذا ثبت أن خطايا ماكاسلين هى أخطر من تلك التى ارتكبها هيوبرت أو

إيكيموتيوب – فهذه علامات تدل على المقدرة الكامنة والمشلولة فى العائلة وفى الدم لمحاولة التكفير عنها ، وهو التعليل الذى ربما كان من الممكن أن يقوله فوكنر . كان ماكاسلين العجوز متكبراً لدرجة لا تسمح له بالاعتراف بذنوبه التى ارتكبها فى حق معاصريه ! وتلك طريقة أخرى للقول بأن الشجاعة الأخلاقية كانت تنقصه ، لكنه أظهر علامة بعد موته تدل على إحساسه بالمسئولية إلى حد ما ؛ إذ إنه ترك فى وصيته ألف دولار لكُلّ من حفدته الزنوج الثلاثة ، لكى يُمنَحُوها عند بلوغهم سن النضج . وليس هذا بتكفير مُرْض طالما أنه لم يكلفه شيئاً ، وتسبب فى حرمان حفدته البيض من المال الذى كان من المفروض أن يكون من نصيبهم ! وعلاوة على ذلك فقد ترك أمر التسليم المذل للمال الملوث لهؤلاء الذين ليست لهم أية علاقة بالوقوع فى الدين .

وفى الجزء الرابع يأخذ آيزاك على عاتقه أن يسلم هذه المدفوعات إلى أبناء عمومته السود . وبعد لأى وإنكار للذات يعثر على الفتاة فوسيبا وقد تزوجت رجلاً مُحَرراً ويعيشان فى مزرعة قاحلة فى آركانساس . أما ابن العم الآخر فقد اختفى ، فى حين نجد الثالث لوكاس بوشامب – الذى سيعرفه القراء فى قصة « الداخل فى التراب » كرجل متكبر صعب المراس – وقد أتى بحثاً عن المال بنفسه فى عيد ميلاده الحادى والعشرين .

وفى الجيل الثانى من آل ماكاسلين أصبح الاتجاه للتكفير عن الخطايا مرتبطاً بالناحية الشخصية أكثر من مجرد كونه مسألة نقود : فقبل زواجه من الآنسة سوفونسبا عاش أبو آيك مع أخيه التوءم فى بيت ماكاسلين القديم . وكان الأخوان العم باك والعم بودى قد أعتقا عبيدهما ، وأخذا على عاتقهما فى شىء يشبه القسم أن يعيشا حياة فقيرة إلى حد ما : فقد عاشا فى كوخ بنياه بأيديهما من ألواح الخشب ، وأحالا البيت الكبير إلى السود لاستخدامه عنبرا للنوم . وقد نظر جيرانهما إلى هذه التصرفات على أنها من قبيل الشذوذ الأحمق ، وخاصة أن ذلك كان فى منطقة المسيسيبى قبل الحرب الأهلية . وكان الأخوان قد احتفظا بسجلات الأعمال المشوشة التى قام آيك بدراستها بحرص ، وسجلا فيها الدليل على فسق أبيهما ، لكن حفيده آيزاك هو الذى أدرك خطايا الأسرة تماما ، وحاول بقدر الإمكان التكفير عنها .

ويذهب آيزاك إلى أبعد من عمه وأبيه فى رفض ميراثه من كاروذرس ماكاسلين : فهو لا يقتنع فقط بمنح جده التى نص عليها فى وصيته لأجل أبناء عمومته السود ، بل يتخلص تماماً من كل ممتلكاته – أراضيه ومزرعته وبيته وكل شىء ! ومثل المسيح فإنه يحترف النجارة ،

وعندما تطالبه زوجته بأن يستعيد ممتلكاته المهجورة ، وأن ينجب أطفالاً يرثون هذه الممتلكات – فإن آيزاك يرفض الزواج أيضاً . ويصبح « عمًّا لكل البلد وأباً بدون أبناء ! » .

ولعل حكمة سام فاذرز الموحية المحفزة قد أدركت فى آيك مرشحاً مناسبًا للقيام بعملية الكشف الروحى ، وقد نجح آيك فى كل اختبارات الهندى لكى يصبح شاهداً على الحقيقة من العالم الآخر ، لكن بعد موت الدب ، وموت سام فاذرز ، ونهاية البرية –كان لابد لآيزاك أن يعود بكل مواهبه حيث يقع ميراثه ؛ فهو ليس مجرد زعيم هندى ، بل مسيحى يملك المعرفة الشاملة عن الخطيئة الأولى ، والضمير الذى يستمد طاقته من المذهب الكالفينى .

ولقد لاحظنا أن رفض آيك للمعتقدات القديمة يختلف فى الدرجة أكثر من اختلافه فى النوع ولمحات التكفير التى قام بها أجداده . ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أن مثل هذه اللمحات من إنكار الذات والكرم كانت جزءاً من المنهج الأخلاقى للطبقة المسئولة نفسها عن وجود الأرستقراطية الجنوبية أو عبء التاريخ كما صورها فوكنر . ونحن نرى لمحات أقل من هذه الروح المتميزة بالالتزام النبيل الأرستقراطى فى دعوة الماجور دى سبين للذين اغتصبوا أرضه بوضع اليد ، وقاموا بزراعتها بلا أى سند قانونى لكى يشاركوا فى الصيد ، ويقوموا بدورهم فى المباراة ! ونراها أيضاً فى اعتراف ماكاسلين إيدموندز بدينه لآيزاك . الذى كان من حقه امتلاك الكأس المملوءة بالعملات الذهبية والتى منحها إياه خاله هيوبرت بوشامب ثم أنكرها عليه ! تظهر روح النبل فى رفقة معسكر الصيد حيث يصرف النظر مؤقتاً عن التسلسل الطبقى الصارم فى المدينة لأسبوعين بين الغابات : هناك يعترف الجنرال كومبسون والماجور دى سبين بكبرياء العم آش الطاهى الزنجى العجوز ؛ ذلك الكبرياء الذى يتطلب السماح له بالصيد مع الرجال البيض بعد أن قتل آيزاك غزالا ولم يتعد بعد مرحلة الصبا ! وهذا واضح فى معاملاتهم مع أقربائهم وخلانهم وخدمهم سواء كانوا من البيض أو السود أو الهنود أو المولدين ؛ فقد كان هؤلاء الرجال – فى نظر فوكنر – مثل فرسان المائدة المستديرة فى شهامتهم التى لا تخيب رجاء أحد ! وكانت جماعة الصيد برفقتها من الرجال وبامتيازها المكتسب قد ارتبطت فى أذهانهم بخدمتهم فى الجيش الكونفدرالى الذى يعد بحثاً آخر عن الذات ، وقضية رومانسية أخرى ضاعت مع الأيام .

مثل هذا الكرم فى الخلق ، والنبل فى الروح نجده بين القادة ، وهو السبب الذى يجعلهم محترمين من أعضاء الطبقات الدنيا فى مجتمعهم . وفى أعمال فوكنر يعد الرجل الذى يأخذ على

عاتقه الالتزامات والحقوق الأخلاقية للقيادة ، ولا يثبت فى الوقت نفسه نبل الروح الذى يجب أن يتميز به القائد الحق - يعد خائناً لتلك الثقة المقدسة . إنها تلك الخيانة التى تجعل موت توماس ساتبن له ما يبرره فى « أبشلوم ! أبشلوم ! » على يدى واش الفلاح الأبيض الفقير الذى غرر ساتبن بابنته على أمل الحصول على وريث ذكر ، لكنه هجرها عندما ولدت له بنتا !

وفى « الدب » لا يوجد مثل هؤلاء القادة الذين يحملون معهم العار أينما حلوا ، لكن لا يوجد من الأرستقراطيين من يؤدى طقوس الرفض والتكفير مثلما يفعل آيزاك . فإذا كانوا أمراء هذا العالم فإن كرم أخلاقهم قد شوهه التطبيق الجاهل للنظام العام المتداعى للدولة . ومن الواضح أن آيزاك ماكاسلين هو أقربهم إلى مكان الصدارة فى تلك الإمارة .

وعلى أية حال : ما الذى حققه آيزاك بالتخلى عن الملكية والزواج والأبوة وكل متاع هذا العالم ؟ إن تقليده للمسيح غير كامل بالتأكيد ، لأنه لا يستطيع بالفعل أن يحتمل عبء المعاناة من كل ما احتمله ، وذلك ما نراه فى القصة التكميلية فى « اهبط يا موسى » وهى التى لم يرغب فيها الاستمرار فى هذا النوع من المعاناة . كان رفضه رفضاً شخصيًّا ومن ثم كان خلاصه المحتمل شخصيا أيضا لم يكن مسيحاً أو قديساً ، فهو لم يحمل سوى خطاياه وخطايا عائلته ، لكنه لم يحمل خطايا العالم ، ولم يحذ أحد حذوه . وإذا كان قد تدرب على القيام بدور كاهن البرية على يدى راعيه الهندى - فإنه يعترف بقوة الله وسلطته مما يحتم على الإنسان أن يتلقى كل شىء خلقه فى اتضاع وليس فى كبرياء عارم ، لكن آيزاك ولد فى البرية ، ذلك النظام المحكوم عليه بالفناء ، والذى لا تستطيع خصائصه الروحية أن تنتقل أو تخرج إلى حيز التنفيذ فى تاريخ العالم الذى أعقبه .

إن البرية عالم بدائى لا يندثر ، وهى اتساع لا يرتبط بالزمن ، وتجربة مرتبطة بالخلود ، إنها زاخرة بالمخلوقات الأسطورية ، وتلك الأنواع من الأفعال التى يحتمل فيها فقط وجود المراسيم والطقوس : فالأشياء العرضية العابرة تندمج فى المعنى الأكبر « للطقس الوثنى السنوى » . وعندما يقوم آيك برحلته الروحية إلى قلب البرية لكى يرى الدب (وليس لذبحه) فقد تحتم عليه ألا يتخلى فقط عن بندقيته بل عن ساعته وبوصلته . هذا التخلى أو الرفض كانت له دلالته الطقسية : لقد عزل آيك نفسه عن كل ماهو من صنع الإنسان - كل الأشياء المعدنية والوسائل التى تفرض مقاييسنا على الزمان وتحديداتنا للمكان . بدون هذه الحيل التى

توحى بالتكبر الفكرى يستطيع آيك كإنسان أن يصبح جزءاً من الطبيعة . حيئنذ يكون فقط جديراً بالرؤية التى قدمت إليه على يدى الدب . لكنه بمجرد رؤية (بن العجوز) فإنه يشعر بضياعه بدون ساعته وبوصلته . لقد عاش آيزاك طبقاً للأمر الذى ورد فى الإنجيل والذى يقول : « يجب عليك أن تخسر نفسك إذا أردت أن تربحها ! » . فى الغابات العظيمة هذا التخلى عن القيم التى ابتكرها الإنسان لكى يصبح جديراً بالرؤيا – يطغى على المرحلة الأخيرة من إنكار آيزاك لذاته ، لكن عالم التاريخ والزمن والاستغلال والذاتية لا يملك رؤية روحية . ليقدمها لآيزاك ماكاسلين ، ما عدا تلك القناعة الغاضبة بأنه على الأقل لا يشارك فى خطاياه . ومثل سنتياجو – صياد السمك فى رواية هيمنجواى « العجوز والبحر » – الذى عاد من بحثه البطولى بمجرد العظام العارية للسمكة الهائلة – فإن آيزاك قد حقق نصرًا ، لكنه غالى الثمن .

وإذا كانت « الدب » تذكرنا الملحمة فى مجال وإيقاع أحداثها – فإن نتائج هذه الأحداث تتجه صوب المأساة . وفى إمكان آيزاك أن يصبح بطلاً روحيًّا لكن ليس على نمط جيلجامش أو سان جورج أو برسيوس أو فارس الكأس المقدسة : أى من الأبطال الذين تركوا بصماتهم واضحة على الثقافة فى أممهم . فهو لم يقم بقيادة أمته ، ولم يرشد بنى قومه المهملين إلا إلى الصعوبة التى تكتنف الحياة طبقاً لمتطلبات الروح .